

دراسات وأبحاث

أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية

إعداد

هشام نوزري

منشورات مركز الإمام مالك الإلكتروني



أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية

إعداد

هشام نوزري

كلية الشريعة فاس – المغرب -



ـ **الكتاب** : أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية.

ـ **إعداد** : هشام نوزري

ـ **إشراف وإخراج** : مركز الإمام مالك الإلكتروني.

ـ **الطبعة** : الأولى ـ ٢٠٢٠.



مقدمـــة

تتبوأ المدونة الكبرى للإمام مالك – أو المدونة برواية سحنون – كما عرف على ألسنة المتقدمين أو المتأخرين المنزلة العظمى والأهمية الكبرى عند السادة المالكية، فهي المنطلق لعلم المالكية، وعمدة الفقهاء في القضاء والإفتاء المرجح روايتها على سائر الأمهات، وهي الأصل الثاني بعد الموطأ في الفقه المالكي إذ بها كانوا يتناظرون ويتذاكرون، وإليها كانوا يرجعون فيما أشكل عليهم من هذا المذهب، نظرا لقيمتها العلمية في إبراز فقه مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

لقد عاد سحنون إلى القيروان بالمدونة بعد مراجعتها، وعكف عليها ترتيبا وتنظيما لأبوابها ومسائلها، فهذبها وبوبها ودونها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره، وذيل أبوابها بالحديث والآثار إلاّ كتبا منها مفرقة، بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فالمدونة الموجودة بين أيدينا هي ثمرة جهود ثلاثة من الأئمة: مالك بإجاباته، وابن القاسم بقياساته وزياداته، وسحنون بتنسيقه وتهذيبه وتبويبه وبعض إضافاته.

والمعلوم من طريق المنطوق والمفهوم؛ أن المدونة في أصلها هي مجموعة أسئلة سألها أصحاب مالك وتلاميذه فأجاب عنها، وقد وقعت هذه الأسئلة بيد أسد بن الفرات فرحل بها إلى مالك ليعرضها عليه كيف مذهبه فيها. وإنما قصدت هذا الكلام هنا تنبيها مني لئلا يدعي مدع أني أخطأت في نسبة المدونة للإمام سحنون أولا وآخرا، وإنما غرضي هو لفت انتباه القارئ لما أنا بصدد تحريره وبسطه من الكلام. وبالله التوفيق.

أولا : ترجمة موجزة للإمام سحنون :

هو الإمام العلامة، فقيه المغرب، أبو سعيد، عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي، الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان وصاحب "المدونة"، ويلقب بسحنون ارتحل وحج(١).

وسحنون لقب له، واسمه الحقيقي عبد السلام، وسمي سحنونا باسم طائر حديد النظر، لحدة وعمق نظره في تأصيل وتفريع المسائل الفقهية على مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى.

وقد جمع الناس أخباره مفردة ومضافة إلى أصحابها، أخذ بالقيروان عن مشايخها آنذاك، وهم خارجة بن زيد بن ثابت، والبهلول بن راشد الذي لقبه الإمام مالك بعابد بلده، وعلي بن زياد التونسي الذي روى الموطأ عن مالك

(١) - سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٢ص٦٤.

وقيل أنه أول من أدخل مذهب مالك إلى القيروان وفسر لهم قوله ولم يكونوا يعرفون من قبل وغيرهم.

ورحل في طلب العلم في حياة مالك، ومات مالك وهو ابن ثمانية عشر عاما أو تسعة عشر، قيل له: ما منعك من السماع على مالك؟ قال: قلة الدراهم، وقال مرة: محا الله الفقر فلولا هو لأدركت مالكا.

وسمع من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وسفيان بن عيينة والأخوين وغيرهم، وانصرف إلى إفريقية سنة إحدى وتسعين ومائة، وفيها مات ابن القاسم.

قال: خرجت إلى ابن القاسم وأنا ابن خمس وعشرين سنة، وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة.

وكان حافظا ثقة اجتمعت فيه أخلاق قل ما اجتمعت في غيره؛ الفقه البارع والورع الصادق، والصداعة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس

والمطعم، والسماحة، ولا يقبل من السلطان شيئا، وربما واصل أصحابه بالثلاثين دينارا أو نحوها.

سلم له الإمامة أهل مصر، سئل أشهب: من أفقه من قدم إليكم من المغرب؟ فقال: سحنون، قيل: له وأسد؟ قال: سحنون - والله - أفقه منه تسع وتسعين مرة. وقال أيضا: ما قدم إلينا من المغرب مثله. وقال ابن القاسم: ما قدم إلينا من إفريقية مثل سحنون.

وعنه انتشر علم مالك في المغرب، وكان أصحابه أفضل الناس وأعقلهم وأفقههم بما اكتسبوا من صفاته، وكانوا مصابيح في كل بلدة، وعد له منهم نحو سبعمائة.

ولما تولى قضاء افريقية بعد الامتناع من قبوله، إذ لم يجد منه بدا، دخل على بنته خديجة وكانت من خيار النساء فقال لها: ذبح أبوك بغير سكين، فعلم الناس أنه قبل القضاء، وذلك سنة أربع وثلاثين ومائتين، فلم يزل قاضيا محمود السيرة إلى أن توفي رحمه الله سنة أربعين ومائتين وهو ابن ثمانين سنة ودفن من يومه

وصلي عليه الأمير محمد بن الأغلب، وكان بعث إليه بكفن وحنوط، فتحيل ابنه حتى كفنه في غيره وتصدق به.

وقال له رجل: الناس يقولون: انك دعوت الله ألا يبلغك سنة أربعين ومائتين؟ فقال: ما فعلت؛ ولكن الناس يقولونه، ما أرى أجلي إلا فيها.

ورجت القيروان لموته، وحزن الناس، وكان مشايخ من الأندلس يوم موته يبكون مثل النساء، ويقولون: يا أبا سعيد؛ ليتنا تزودنا منك بنظرة نرجع بها إلى بلادنا(٢).

هذه لمحة تقريبية عن حياة الإمام الفقيه عبد السلام بن سحنون، الذي أرسى دعائم وأسس المذهب المالكي، وألف للمالكيين مرجعا هاما لا يستغنى عنه، فيحكى أنه عاش عيشة صعبة عند طلبه للعلم، شأنه في ذاك شأن كثير من العلماء كمثل القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، لكنه مع ذلك نال المنزلة العليا في فقه إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

(٢) - إسهام الطالب الخديم بشرح منظومة العلامة محمد الحسن الخد يم في معرفة مصطلحات المذهب المالكي، تأليف د عبد الكريم قبول، دار الرشاد الحديثة، ص: ٢٣-٢٤.

ثانيا : القصة الكاملة لتدوين المدونة

ليس في المذهب المالكي كتاب نال من الاهتمام والتقدير ما نالته المدونة، وذلك لمكانتها الكبيرة بين أمهات المذهب المالكي، فقد ضمت بين دفتيها وابلا من أفكار أربعة مجتهدين أسسوا عليها قواعد المذهب ولم يبخلوا عليها بما آتاهم الله من علم ودقة فهم للنصوص وهم الإمام مالك (ت١٧٩ه)، وابن القاسم (ت١٩١ه)، وأسد بن الفرات (ت٢١٣ه)، وأخيرا الإمام عبد السلام بن سحنون (ت٢٤٠ه)، وهذه هي الخاصية الأقوى في هذا الكتاب الموسوم بالمدونة وبالمختلطة أو مدونة سحنون. وإلى هذا أشار العلامة الخديم حيث قال:

دونها سحنون عالي الدرجة وهكذا العتبية المستخرجة

"قصة تأليف هذا الكتاب تبدأ حين سُئل الإمام مالك عن أسئلة كثيرة، فأجاب عنها ودونها تلاميذه، وأول من كتب ذلك أسد بن الفرات القاضي القيروانيي، لأن "المدونة كانت عبارة عن مسائل مجتمعة كتبها بعض أصحاب أبي حنيفة، ثم وقعت بيد أسد بن

الفرات فرحل بها إلى مالك ليعرضها عليه كيف مذهبه فيها، ليثبت ما أثبته ويسقط ما أسقطه، فوجده قد مات رحمه الله.

فوقع على أشهب فوجده بحرا لا سحل له إلا أنه كان يقول: «أخطا مالك في مسألة كذا وأخطأ في مسألة كذا»، فقال في نفسه: ما مثل هذا مع شيخه إلا كرجل جاء إلى البحر فبال بساحله، فنظر إلى بوله فقال: هذا البول بحر كما أن هذا البحر بحر.

ثم سأل عن أعلم أصحاب مالك، فدُل على ابن القاسم فرحل إليه، وكال في نفسه أن يسأله عن "المدونة" عنده ليأخذ منها ما وافق مذهب مالك ويجمعه فيكون مصنفا صالحا، فتهيأ له ما أراد من عرضها على ابن القاسم.

وبعد ذلك؛ رحل بها سحنون إلى ابن القاسم فعرضها عليه، وكان ربما أملى عليه ابن القاسم مسألة فلا يكتبها حتى يستحلفه عليه لقد صح سماعها عن مالك، بينما هو كذلك احتاج ذات يوم إلى ماء يجعله في الدواة فأراد أن يقوم فقال له ابن القاسم: رويدك، فأدلى أصبعه إلى الدواء فقطر فيه من الماء ما فيه كفاية، فلم يكن يستحلفه سحنون بعد ذلك"(٣).

(٣) - إسهام الطالب الخديم بشرح منظومة العلامة محمد الحسن الخديم، ص: ٢٤-٢٥-٢٦.

ثم رحل عنه وذهب إلى بلده بالقيروان فاجتمع بأسد في أثناء سفره فأراه الكتاب، فطلب منه أن يعيره للاستنساخ منه فامتنع، بعد ذلك، "تلطف سحنون في نسخها منه وحاول ذلك ابتداء هو ومحمد بن رشيد، فلما سمع بذلك أسد شح ولم يعطها لهم، ولكن سحنون تحيل حتى أتم نسخها، ويحكي في نور البصر لأحمد بن عبد العزيز الهلالي، أن سحنون بات عند أسد في ليلة هو وأصحابه، فلم يبزغ صباح ذلك اليوم حتى كان قد أتم نسخها، ثم قصد ابن القاسم سنة ١٩١ه، وقد تفقه في علم مالك ومعه الأسدية، فلما كاشف به ابن القاسم، أسقط هذا الأخير منها أشياء كثيرة، ومنها ما انتقده أهل القيروان من أخال وأحسب وأظن، ونحو ذلك، كما أن سحنون هذبها وبوبها بعد أن كانت مختلطة الأبواب، وألحق فيها من خلاف أصحاب مالك ما اختاره وذيل أبوابها بالآي والأحاديث والآثار إما من روايته أو من موطأ ابن وهب أو غيره، بينما بقية لم يتم سحنون عمله فبقيت على أصل اختلاطها في السماع، ثم إن ابن القاسم كتب لأسد بأن يعرض كتابه على ما عند سحنون

ليراجع ما روي عنه ويعدل ما تغير، لكن أسد رفض ذلك، قال الحطاب ٩٥٤هـ: "فيقال أن ابن القاسم دعا أن لا يبارك له فيها فهي مرفوضة إلى اليوم"(٤).

ثالثا: مكانة المدونة في المذهب المالكي

إذا كانت المدونة هي أصل المذهب المالكي، وعمدة الفقهاء في القضاء والإفتاء المرجح روايتها على سائر أمهات الكتب في المذهب، فإنها تعتبر الأصل الثاني للمالكية بعد كتاب الموطأ، فبها كانوا يتناظرون ويتذاكرون، وإليها كانوا يرجعون فيما أشكل عليهم من هذا المذهب، فما من مسألة أخفيت إلا وجوابها مبسوط بين دفتي المدونة.

فحينما رجع سحنون إلى القيروان بالمدونة في حلتها الأخيرة بعد مراجعتها، وعكف عليها ترتيبا وتنظيما لأبوابها ومسائلها، فهذبها وبوبها ودونها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره وعرضه، وذيل أبوابها بالحديث والآثار إلا كتبا منها مفرقة، بقيت على أصل اختلاطها في السماع،

(٤) -نقلا عن مدونة الباحث عبد الكريم محمد بناني حول موضوع: المدونة في المذهب المالكي: قصة كتاب. نشر ضمن أعداد مجلة المجلس العدد ٣).

تلاهف الناس عليها، وتقبلوها بقبول حسن، لأنها حوت فقه إمام دار الهجرة مالك بن أنس والصحابة قبله متصلة مسائلها بسند صحيح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، شأنها في ذلك شأن المذهب المالكي.

"وأمام هاته العناية التي حظيت بها المدونة، فقد حازت أولى المراتب ونالت الحظ الأوفر من العناية، نظرا لمكانتها في المذهب المالكي وعند أهل الأندلس"(٥) لأنها ضمت بين دفتيها حوالي ٣٦,٠٠٠ مسألة(٦) إلى جانب الأحاديث والآثار(٧). وذلك لأنه لم يحظ كتاب فقهي من كتب المالكية ما حظيت به المدونة من عناية واهتمام، فقد اعتنوا بها عناية فائقة، فمنهم من لخصها واختصرها، ومنهم من اكتفى بالتعليق على بعض أفكارها، ومنهم من نبه على مشكلاتها، ومنهم من شرحها شرحا وافيا(٨).

(٥) - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج٣ص٢٩٩-٣٠٠.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.
(٦) - المنهج الاجتهادي لابن رشد من خلال البيان والتحصيل، د علي العلوي، ص:٥٦.
(٧) -محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، د عمر الجيدي،ص: ١٨١.
(٨) - ترتيب المدارك للقاضي عياض، ج"ص٢٩٩-٣٠٠. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: ج٣ص٢٨١ وما بعدها، نقله إلى العربية د، عبد الحليم النجار. ط،٢، دار المعارف بمصر.

وقد تتبع بعض الباحثين الأحاديث التي تضمنتها المدونة فبلغ بها (٥٥١) حديثا، وهي أنواع:

- منها (٣٤١) حديثا صحيحا.
- اتفق البخاري ومسلم على (١٨٤) حديثا.
- وانفرد البخاري منها ب (٢٠) حديثا.
- وانفرد مسلم منها ب (٦٥) حديثا.
- وبلغ عدد الأحاديث الصحيحة التي نص عليها أحد الحفاظ (٧٢) حديثا.
- أما الأحاديث الحسنة فعددها (١٣١) حديثا.
- منها (١٠٣) حديثا حسنة لذاتها.
- و (٢٨) حديثا حسنة لغيرها.

- وعدد الأحاديث الضعيفة التي يزول ضعفها بوجود شواهد أو متابعات (٧٠) حديثا، وفيها مراسيل صحيحة الإسناد.
- والأحاديث الضعيفة التي ورد في أسانيدها رواة متروكون، أو مجاهيل العين عددها (٩) ولا توجد فيها أحاديث موضوعة(٩).

فنجد هاته العناية حاضرة بقوة عند الفقهاء، فهذا ابن رشد الجد (٥٢٠هـ) في كتابه البيان والتحصيل استدل بعدد كبير من مسائلها، حيث بلغت أربعمائة مسألة، وهذا يفسر بأهميتها في المذهب المالكي ولدى الأندلسيين خاصة، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا المعنى في المقدمة فقال: "وعكف أهل القيروان على هذه المدونة(١٠) ،واستمر التأليف حول مشكلات المدونة وخفايا أسرارها وأعلام رجالها، فألف ابن رشد كتابا خاصا حولها لحل مشكلاتها سماه: "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات"، كما ألف القاضي

---

(٩) - المدونة الكبرى وأثرها في طرق الترجيح في المذهب المالكي: أحمد صليح ص ٧ مجلة المذهب المالكي العدد الأول ١٤٢٧- ٢٠٠٣.
(١٠) - مقدمة ابن خلدون، ص٤٩٣.

عياض كتابه المسمى: "التنبيهات المستنبطة من الكتب المدونة والمختلطة، ونجد الشيخ خليل في المختصر يرمز إليها قائلا: "مشيرا بفيها"(١١) أي المدونة، ثم توالى التأليف حولها شرحا واختصارا وتهذيبا وتنكيتا إلى ما شاء الله.

رابعا: القيمة العلمية للمدونة

تميزت المدونة الكبرى بسهولة الأسلوب، وحسن تنسيق الألفاظ ورصانة العبارات حيث رتبت ترتيبا، وصنفت إلى أبواب وفصول، فأصبحت مرجعا أساسيا للمذهب المالكي مثلها مثل الموطأ.

لم يحظ أي كتاب من كتب المذهب بما حظيت به المدونة، إذ تعلق الناس بها وحفظوها عن ظهر قلب على كبر حجمها، وأكثروا من الشروح لها، ومن التعليق عليها، والتنبيه على غريبها ومشكلاتها، وقد كان سحنون في مقدمة المعجبين بها لذلك كان يوصي طلابه بالاعتناء بها، والاعتماد عليها ويقول: «عليكم بالمدونة، فإنها كلام رجل

(١١) - مختصر الشيخ خليل ص:٥.

صالح وروايته»(١٢) وكان يقول: إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القران تجزئ في الصلاة عن غيرها، ولا يجزئ غيرها عنها(١٣).

أفرغ الرجال فيها عقولهم، وشرحوها وبينوها، فما اعتكف أحد على المدونة ودراستها إلا عرف ذلك في ورعه وزهده، وما عداها أحد إلى غيرها، إلا عرف ذلك فيه، ولو عاش عبد الرحمن أبدا، ما رأيتموني أبدا(١٤).

وروى ابن رشد عن بعضهم قوله: "ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة"(١٥).

لقد اهتم الناس بالمدونة اهتماما بالغا، واعتنوا بها عناية فائقة، ورجحوها على سائر كتب المذهب، حتى كثرت الشروح التي وضعت عليها، والتعاليق التي دارت حولها، والاختصارات لها، إلا دليل على هذا الاهتمام، وهذه العناية. بهذا الكتاب الفريد الذي حوى علم مالك وفقه أهل المدينة.

(١٢) - ترتيب المدارك: ج٣ص٢٠٠. والمعيار المعرب للونشريسي: ج١٢ص٢٣.
(١٣) - المقدمات الممهدات لابن رشد: ج١ص٤٤.
(١٤) - المقدمات الممهدات لابن رشد، ج١ص٤٤.
(١٥) - المصدر نفسه.

وتحدثنا كتب الطبقات أن عددا وافرا من الفقهاء كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، فيحكي عياض أن محمد بن سليمان الأنصاري الطليطلي كان يستظهرها ، وكتبها في اللوح فحفظها كما يحفظ القرآن(١٦)، ويذكر الشيخ أحمد بابا التنبكتي، أن الشيخ أحمد المرجولي كان يحفظها عن ظهر قلب، ويستحضر شراحها، وكذا الشيخ إسحاق بن يعمر الغماري وأبا القاسم السيوري الذي أملاها من حفظه لما فقدت مرة من القيروان(١٧) وأبا الحسن علي بن عشرين أملاها من حفظه، بحيث لما وجدوا نسخة قوبلت عليها النسخة التي أملاها من حفظه لم يجدوا بينهما اختلافا إلا في واو أو فاء(١٨).

وللإشارة فإذا أطلق الكتاب بهذا اللفظ فإنما يريدونها لصيرورته عندهم (الفقهاء) علما بالغلبة عليها. قال ابن مالك رحمه الله:

وقد يصير علما بالغلبـــــــــة　　　مضاف أو مصحوب أل كالعقبة(١٩)

---

(١٦) - ترتيب المدارك: ج٣ ص١٧٧.
(١٧) - نيل الابتهاج للتنبكتي: ص٢٠.
(١٨) - الفكر السامي للحجوي: ص١٣٨.
(١٩) - شرح ألفية ابن مالك للشاطبي المسمى المقاصد الشافية: ج١ص٥٨٠.

لأن إطلاق الكتاب قد اختص به صنفان من العلماء وهم: الفقهاء والنحويين. وعلى هذا فإذا أطلق مصطلح الكتاب عند فقهاء المالكية فالمراد به مدونة الإمام مالك أو سحنون، وإن أطلق عند النحويين فالمراد به كتاب سيبويه. وفي هذا يقول العلامة الخديم:

إن أطلق الكتاب فالمدونة   بالاسم ذا للفقهاء معينـــــة(٢٠)

خامسا : محنة المدونة

بالنظر إلى ما تقدم من الحديث عن المدونة، نجد أنها لم تسلم من غضب بعض الناس الذين تضايقوا كل الضيق منها ومن المهتمين بها، فقد تعرضت المدونة إلى محنة صعبة خلال حكم العبيديين في تونس والموحدين في المغرب. ومن ذلك ما حكاه عياض حيث قال: "فقد تعرضت المدونة للإحراق في الغرب الإسلامي مرتين، مرة في تونس على يد عباس الفارسي الذي كان محدثا يبغض أهل الفقه والرأي، ويقع في أسد وابن القاسم"(٢١)، ومرة في المغرب على يد الموحدين(٢٢)، إلا أن هذا الداء لم يُضعف عضد المالكية، ولم يُثنهم عن الاهتمام بهذا المصنف، والعناية بنشره بين الناس كلهم،

(٢٠) - إسهام الطالب الخديم: ص٢١.
(٢١)- ترتيب المدارك للقاضي عياض: ج٣ ص٣٠٠.
(٢٢) - المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي: ص٤٠٠.

دراسة وحفظا وشرحا واختصارا وتعليقا، حتى صارت تعد شروحها ومختصراتها بالعشرات.

ومع هذا، فقد كان للمالكية رحمهم الله في تعليم وتعلم المدونة بالخصوص والكتب الأخرى عموما طريقتان يمكن استنتاجهم من أحد مقولات القاضي أبي بكر بن العربي المعافري بشأن عمل ابن رشد في البيان، حيث قال في شان كتابه: "ما حصلت وما بينت"، فقال ابن رشد رادا عليه: "عند الممات تظهر التركات"(٢٣).

والحاصل أنني أوردت هذه المقولة؛ قصد الوقوف على الرحلة العلمية للقاضي أبي بكر ابن العربي إلى المشرق حيث أخذ فيها عن علماء مصر وبغداد وغيرهم. فتشبع بمنهج البغداديين في التدليل والتعليل، ما أداه إلى السخط على طريقة ومنهج التدريس في الأندلس، القائم على تصحيح الروايات، والبحث عن ألفاظ المدونة، بعيدا عن الأدلة والمناقشة القوية التي تكون بين الفقهاء حول قضية ما.

(٢٣) -البهجة في شرح التحفة للتسولي: ج٢ص١٤٥. ومنهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، الفصل الثالث: ص٢٧١.

ففقهاء العراق جعلوا في مصطلحاتهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، دأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين، وأما الاصطلاح القروي: فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتحقيق الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام، واضطراب السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها، وقد سلك القاضي عياض في تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين وذلك لقوة عارضته(٢٤).

سادسا: أثر المدونة في تطور المذهب (مرحلة التطور)

مر المذهب المالكي منذ تأسيسه على يد الإمام مالك بن أنس بمراحل مختلفة عكست جهود علماء المالكية بمختلف طبقاتهم في خدمة المذهب. وإذا كان التأريخ لمراحل التطور في المذهب قد حدد في أقوال المتقدمين في تقسيم طبقات الفقهاء داخل المذهب

(٢٤) - أزهار الرياض للمقري: ج٣ص٢٣ ومناهج التحصيل (مقدمة الكتاب).

إلى متقدمين ومتأخرين، واعتبار ابن أبي زيد القيرواني كفيصل تفرقة بين طبقتين، لأنه أول طبقة المتأخرين، وآخر طبقة المتقدمين من قبله(٢٥).

وإذا كان هذا التقسيم لا يعكس الملامح العامة والبارزة لمراحل التطور في المذهب المالكي، فإن التمييز بين المراحل المتداخلة يصعب نوعا ما.

ولعل أدق تصوير بتعبير المناطقة لمراحل التطور داخل المذهب المالكي ما ذهب إليه محمد الطاهر بن عاشور، والذي يرى أنه منذ منتصف القرن الثاني بدأ استقرار المذهب بوضع الأصول، وتمييز العام منه، ثم دخل بعد القرن الرابع في دور التفريع– أي الاجتهاد المقيد– ليتمخض المذهب في القرن الخامس لعمل جديد وهو عمل التطبيق، بتحقيق الصور، وضبط المحامل، فكان اجتهاد جديد، هو الاجتهاد في المسائل.

وفي أوائل القرن السادس دخل المذهب في طور جديد، وهو الترجيح، حيث اعتمد علماء المذهب الاجتهاد النظري، بدرس الأقوال، وتمحيصها، والاختيار فيها بالترجيح والتشهير، حيث انتهى ذلك الاختيار إلى ظهور تآليف مختصرات محررة، تكتفي بأقوال تثبت، هي الراجحة المشهورة، وأقوال تلغى، هي التي ضعفها النظر من الدور الماضي،

(٢٥) - حاشية الدسوقي: ج١ص٢٥.

باعتبار أسانيدها، أو باعتبار مداركها، أو باعتبار قلة وفائها بالمصلحة التي تستدعيها مقتضيات الأحوال(٢٦).

يستشف من كلام الشيخ الطاهر بن عاشور أن المذهب خرج إلى الوجود خاصة في مرحلة التطور التي تعتبر حدثا هاما وبارزا لدى فقهاء المالكية، إذ تميزت هذه المرحلة بالتفريع لأصول المذهب وأقواله، والاعتماد على الاجتهاد المقيد والتطبيق والترجيح والتشهير، وفيها ظهر نوابغ الفقهاء والعلماء أمثال أبي الحسن اللخمي صاحب التبصرة، إذ بدأ يخضع أقوال المتقدمين للنقد والتمحيص بطريقة مغايرة لما كان سائدا في السابق، بالإضافة إلى ظهور مؤلفات جليلة كالمدونة والأسدية والواضحة والعتبية والموازية ومختصر ابن عبد الحكم وغيرها، والتي يطلق عليها اسم الأمهات، حيث قال العلامة الخديم:

إن أطلق الكتاب فالمدونـــــــــــة ... بالاسم ذا للفقهاء معينـــــــــــــة

وهي إحدى الأمهات الأربـــــــــع ... متبوعة وغيرها كالتبـــــــــــــع

(٢٦) - أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي محمد الفاضل بن عاشور: ص٧٠.

دونها سحنون عالي الدرجـــــــة وهكذا العتبية المستخـــــــرجة

ألفها الأندلسي الأبـــــــــــــــي محمد بن أحمد العتـــــــــــبي

لابن حبيب السلمي عبد المــــــلك واضحة مسلكها ما إن ســـــلك

ولابن مواز نموا إحــــــــــــــداها يقصرن في الفــروع عن مداها(٢٧)

سابعا: مختصرات المدونة وشروحها

ظلت المدونة تشغل الحيز الأكبر في الدراسات الفقهية في الغرب الإسلامي، وتحتل الصدارة في حلقات التدريس مدة من الزمن، لا ينافسها في ذلك كتاب آخر، اللهم إلا ما كان من أمر واضحة ابن حبيب والعتبية لأحمد العُتبي اللتين اعتنى بهما أهل الأندلس عناية كبيرة فترة من الزمن، لم تفقد فيها المدونة مكانتها، باعتبارها الكتاب المدرسي الأول الذي حظي بثقة جميع الدارسين طلابا وشيوخا منذ أن جمع أشتات مسائلها الإمام سحنون رحمه الله تعالى.

(٢٧) -إسهام الطالب الخديم: ص١١.

وسبق أن ذكرنا أن الإمام سحنون لما عاد بالمدونة من مصر بعد أن صححها على شيخه ابن القاسم بدأ يرتبها ويهذبها ويذيلها بالآثار، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يكمل ترتيبها حيث بقيت منها بعض الأبواب على حالها مختلطة بالسماع الأول، وبما أن المدونة أصبحت محط أنظار الجميع وهي التي عليها مدار التدريس والفتيا عند المالكية، فقد توجهت إليها عناية العلماء والباحثين، فتصدى كثير منهم لاختصارها وتهذيبها ليسهل حفظها، ورأى البعض الآخر في شرحها والزيادات والتقييدات والتعليقات عليها نصرة لمذهب مالك بن أنس رحمه الله، وفيما يلي نذكر بعض اختصاراتها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- + اختصار المدونة: لإبراهيم الكلاعي الزيادي الأندلسي (ت٢٩٥هـ)(٢٨).
- + اختصار المدونة: لمحمد بن إبراهيم اللخمي (ت٢٩٩هـ)، وقد اشتهر اختصاره بين طلبة القيروان(٢٩).
- + اختصار المدونة: للفضل بن سلمة الجهني البحائي (ت٣١٩هـ)(٣٠).

(٢٨) - جذوة المقتبس: ص١٤٧.
(٢٩) - ترتيب المدارك: ج٣ص٢٥٩.
(٣٠) - بغية الملتمس: ٤٤٣.

❖ + اختصار المدونة: [لأبي عبد الله محمد بن رباح الأموي الطليطلي (ت٣٥٨ه)(٣١).

❖ + اختصار المدونة: لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك الخولاني (ت٣٦٤ه)(٣٢).

❖ + اختصار المدونة: لأبي عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت"٣٨٦ه)(٣٣).

❖ +كتاب المغرب في اختصار المدونة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (ت ٣٣٥هـ)(٣٤).

❖ + التهذيب في اختصار المدونة لأبي سعيد البراذعي(٣٥).

ولقد لقيت المدونة اهتماما كبيرا فظهرت لها شروحات واختصارات، مما يدل على مكانتها العلمية في نفوس العلماء، حتى حفظها كثير من العلماء عن ظهر قلب مع كبر حجمها وتشعب مسائلها، فقد جاء في نفح الطيب: "ولقد كان ولاة الأندلس يشترطون

(٣١) - الديباج ٢٥٥. ترتيب المدارك: ج٦ص١٧٧.
(٣٢) - المعالم: ج٣ص١٠٩ وما بعدها. أزهار الرياض: ج١٠ص٢٥. ترتيب المدارك: ج٤ص٤٩٤.
(٣٣) - معالم الإيمان: ج٣ص١٤٦.
(٣٤)- جذوة المقتبس: ص٥٣. بغية الملتمس: ص٤٢٥. الفكر السامي: ج٣ص١١٩.
(٣٥) - المعالم: ج٣ص١٧٥.

لتولية القاضي أن يكون مستظهرا للمدونة كما لا يسمح للفقيه بلبس القلنسوة وصعود المنبر إذا لم يكن يحفظ المدونة"(٣٦).

ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة التي حظيت بها المدونة، فقد كثرت الشروح والتقييدات والتعليقات والزيادات عليها فهي كثيرة جدا، نظرا لمكانتها بين دواوين المذهب المالكي، إذ هي الأصل الثاني للمالكية بعد الموطأ، ولأنها تضمنت أقوال مالك وما كان عليه أهل المدينة في ذلك الوقت الذي يعتبر من بقايا الزمن الجميل، بلغة العصر.

وأول من شرحها هو الإمام محمد بن سحنون كما يذكر الدباغ في كتابه المعالم(٣٧).

وقد وصل في شرحه كتاب المرابحة ولم يكمله، ثم توالت الشروح من العلماء عليها بعد ذلك، وقد ذكر عمر الجيدي في كتابه (محاضرات في تاريخ المذهب المالكي) ما يقارب ثمانين شرحا واختصارا وتعليقا على المدونة، نكتفي بالإحالة عليه(٣٨) دون ذكر ذلك.

(٣٦) - الزقور، القواعد المستنبطة من المدونة الكبرى. ج١ص: ١٣٩-١٤٠-١٤٥.
(٣٧) - المرجع السابق.
(٣٨) - محاضرات في تاريخ المذهب المالكي د، عمر الجيدي: ص ١٨٢ وما بعدها.

وأمام هاته العناية الكبيرة بالمدونة خاصة في باب الترجيح نجد أن قول مالك في المدونة مقدم على غيره، وفي هذا يقول شيخ المغرب أبو محمد صالح (ت٦٣١هـ): "إنما يفتي بقول مالك في الموطأ، فإن لم يجد في النازلة فبقوله في المدونة، فإن لم يجد فبقول ابن القاسم فيها وإلا فبقوله في غيرها وإلا فبأقاويل أهل المذهب(٣٩).

(٣٩) - المعيار للونشريسي: ج١٢ص٢٣. فتاوى عليش: ج١ص٧٣.

خاتمـــــــــــــة

يستشف مما تقدم عرضه وبسطه، أن المدونة أصل المالكية؛ إذ عليها بني المذهب المالكي، وأسست ركائزه القائمة على ستة عشر أصلا كما حكاه غير واحد، وأن الاستدلال الشرعي داخل المدونة أيضا يقوم على أصول نقلية نصية وأخرى نظرية اجتهادية، وهذا هو السر الذي جعل هذا الكتاب محتفظا بمكانته ورمزيته رغم ما تعرض له على مر تاريخه من مضايقات، أغلبها كانت تنبئ عن قصور فهم؛ واستجداء لأسباب واهية لا تسمن ولا تغني طالبها من جوع.

قال أبو عمران العبدوسي:

ما ألف الناس في كل الدواوين   مثل المدون الغراء في الديـــــن

سحنون ألفها للطالبين لهـــا   يا رب سحنون اجعلني كسحنون

هشام نوزري

حاصل على بكالوريا التعليم الأصيل

مسلك: العلوم الشرعية

حاصل على الإجازة في الشريعة

تخصص: الدراسات الشرعية

